الفلاسفة يحتاجون إلى المال

الفلاسفة مختلفون فيهم الزاهد والكريم وفيهم البخيل والمرابي

الفلاسفة ليسوا كائنات غريبة (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

نكاد لا نعرف عن الفلاسفة سوى أفكارهم ونتف من حياتهم، ولكننا لا نعلم علم اليقين شيئا عن حياتهم اليومية وعلاقتهم بالمال كمقوّم لا يستقيم لهم العيش من دونه، بوصفه القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا بعبارة الجاحظ. ولا ندري هل هم زاهدون في الدنيا وفي ما في أيدي الناس، أم أنهم لا يختلفون في علاقتهم به بسائر البشر؟ وهل ثمة انسجام بين أفكارهم وسلوكهم في الحياة؟

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

يُبدي مؤرخو الفلسفة اهتمامهم بالمنطق أكثر مما يبدونه بالجانب اللوجستي، والحال أن المقولة اللاتينية تؤكد أن المرء يعيش أولا، ثم يتفلسف تاليا، أي أن الحياة مقدَّمة على الفكر، فلا فكر لمن كان بطنه خاويا، لأن همّ المرء حينئذ سيكون منصرفا وراء البحث عما يقيم أوده ويضمن بقاءه.

ولكي يعيش، لا بد أن تتوافر له أسباب العيش. فكيف يعيش الفلاسفة؟ وهل كانوا أثرياء أم فقراء؟ هل يعيشون من كتبهم؟ هل يفاوضون الناشرين حول حقوق التأليف؟ هل كانوا يكسبون عيشهم من ريع العقارات أم من إرث تركه أسلافهم؟ وهل كانوا يمارسون أعمالا أخرى إلى جانب تأملاتهم الفلسفية؟ هل كانوا كرماء في تعاملهم مع غيرهم أم بخلاء؟ هل شملت تأملاتهم النظرية المال ودوره في الحياة؟ وهل كانت تلك التأملات النظرية منسجمة مع حياتهم الفعلية من جهة علاقتهم بالمال؟

أسئلة طرحها الفرنسي هنري دو مونفالي في كتاب طريف عنوانه "محفظة نقود الفلاسفة"، واستكشف فيه نظرة الفلاسفة إلى المال وعلاقتهم به في حياتهم العملية.

طباع مختلفة

منذ غابر العصور كان الرأي السائد أن حياة الفيلسوف ينبغي أن تكون منسجمة مع كتاباته، ولكن الواقع غير ذلك، في أكثر من مثال. فقد عُرف أفلاطون مثلا بمعارضته الشديدة للسفسطائيين ما ترك انطباعا لدى اللاحقين بأن الفلسفة ممارسة مجانية خالصة لوجه الآلهة، ليس من غايتها سوى البحث عن الحقيقة وعلاج الروح.

ولئن ظلت عبارة "سفسطة" مقترنة بغياب التفكير أو الدفاع عن القضايا التي لا تقبل الدفاع، فالسبب في رأي هنري دو مونفالي ناجم عن موقف فلاطون من السفسطائيين ونظرته إليهم، واتهامهم بتلقي مقابل عن الدروس التي كانوا يلقونها، ما يعني أن دروسه هو مجانية. والسؤال عندئذ: كيف كان أفلاطون يقيم أوده ويكسب رزقه؟

كان أفلاطون من أسرة أرستقراطية عريقة في أثينا تتحدر من صولون مؤسس الديمقراطية الأثينية، ولذلك لم يكن يحتاج إلى العمل لكسب قوته، فعلاقته بالعالم كانت علاقة تأمل حرّ متنصّل من كل ضغط مادي، ولكن ذلك لم يمنعه من طلب المال من الطاغية ديونيسيوس الثاني (397 – 343 ق م) حاكم سرقسطة، مقابل توليه مهمة مستشار في التصرف في المسائل المالية. في حين أن السفسطائيين الذين يتهمهم بحب المال، كانوا في الحقيقة من الطبقة الوسطى، وفي حاجة إلى كسب رزقهم بالتدريس على غرار أساتذة الفلسفة في عصرنا، الذين هم في ممارستهم اليومية أقرب إلى السفسطائيين من سقراط وأفلاطون.

غير أن التناقض يتبدى بجلاء أكبر عند الفيلسوف الرواقي سينيكا (1 – 65 م) ، فهو لا ينفك يعبر عن احتقاره للمال، قولا وكتابة، والدعوة إلى التقشف والزهد وحتى الفقر، والتشبه بديوجين الكلبي، ولكنه في الواقع كان من أثرى أثرياء عصره، حتى أن المؤرخ تاسيتوس أدرج ثروته في المنزلة الرابعة قياسا بثروات الرومان وقتها، وذكر أنه كان مرابيا شرسا، ولم يتردد في تهديد البروتون باستعمال العنف ضدهم لاسترداد مبلغ أقرضه إياهم مع الفوائد.

ولا يعني ذلك أن كل الفلاسفة ساروا سيرة سينيكا، فقد عُرف عن كانْت مثلا سخاء الكفّ، ومقته للبخل، وبالرغم من أنه كان يكسب رزقه من تلاميذه مباشرة، فقد اعتاد أن يصرف لخادمه مارتن لامبه فوق ما يستحق، حتى بعد التخلي عنه، إلى درجة أن الخادم عاش عيشة ميسورة أفضل بكثير من كانْت نفسه في نهاية حياته.

كما كان صاحب "نقد الفكر المحض" ينفق على أخته وابنها، ويسمح للطالب فاسيانسكي، الذي سوف يصبح سكرتيره الخاص ومتعهد وصيته، بمتابعة دروسه مجّانا. أي أنه كان أخلاقيا في تعامله مع المال، يرى فيه وسيلة لا غاية، ومنسجما مع فلسفته نظريا وعمليا.

كذلك سارتر، فقد روي عنه أنه كان كريما بشكل لا يوصف، ولا يكتفي بدفع كل ما يتخلد بذمة أقربائه من فواتير ضرائب وإيجار وعيادات طبية، بل كان عادة ما يخرج دفتر شيكاته قبل أن يُطلب منه.

ومما روته سيمون دو بوفوار في مذكراتها أن فيلسوف الوجودية كان يوزع المال يمنة ويسرة حتى أنه لم يعد يجد ما يشتري به حذاء. ولئن فسر بعضهم ذلك السخاء برغبة سارتر في جعل الآخرين مدينين له بالجميل، فإن الكاتب يعتبر أن ذلك الكرم المفرط ناجم عن كرهه للبورجوازية التي كان ينتمي إليها، علاوة على فهم مخصوص للحرية، حريته هو وحرية البشر.

أهمية المال

إذا افترضنا أن الفيلسوف إنسان كسائر البشر لا يمكن أن يعيش حياته بغير مال، فهل يفكر في العائدات المالية حين يؤلف كتابا وينشره؟

يقول سبينوزا إن "ثمة من يكتب ليقول شيئا، ومن يكتب لأجل أن يكتب"، أي أن ينشر ويبيع، ولكن سبينوزا كان يعيش من ريع العقارات ولا يحتاج إلى أن تدر عليه مؤلفاته مكاسب مالية، بينما عَرف ماركس الضيق خاصة حين كان في لندن، ولم يبع من كتابه "رأس المال" سوى ألف نسخة طيلة خمس سنوات، ولعل إدانته الظلم الاجتماعي والاستغلال والبؤس مصدره خواء جيبه وبطنه.

> منذ القدم كان الرأي السائد أن حياة الفيلسوف ينبغي أن تكون منسجمة مع كتاباته، ولكن الواقع غير ذلك

ففي خمسينات القرن التاسع عشر، واجه عدة صعوبات مادية ومالية أورد تفاصيلها في رسائله إلى إنجلز، حيث عانى هو وأسرته الجوع والمرض، بل إن أحد أبنائه مات بسبب نقص في التغذية، ولم تتحسن أوضاعه المادية والمعيشية إلا حين قبل أخيرا نصيبه من الميراث، بعد رفض دام سنين. وهو ما مكنه من الانكباب على تأليف عمله الذي سيكون إضافة هامة إلى الفكر الإنساني، ويخلق صراعات أيديولوجية لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

وجملة القول إن الفلاسفة بشر قبل أن يكونوا مفكرين، يحتاجون إلى المال، عصب الحرب، ولا يمكن أن يستغنوا عنه، إن قليلا أو كثيرا، حتى لا تشغلهم أسباب الحياة عن تأملاتهم الفكرية. منهم من تنسجم أفكاره مع علاقته بالمال في الواقع، ومنهم من يناقض قوله فعله، فيعتبر أن المال هو "الوسيلة المطلقة"، كما بيّن جورج زيمل (1858 – 1918) في كتابه المرجعي "فسلفة المال" حيث رأى فيه "ظاهرة من أكثر الظواهر الدّالّة في عصرنا، غمرت ديناميته كل نظرية وكل ممارسة".

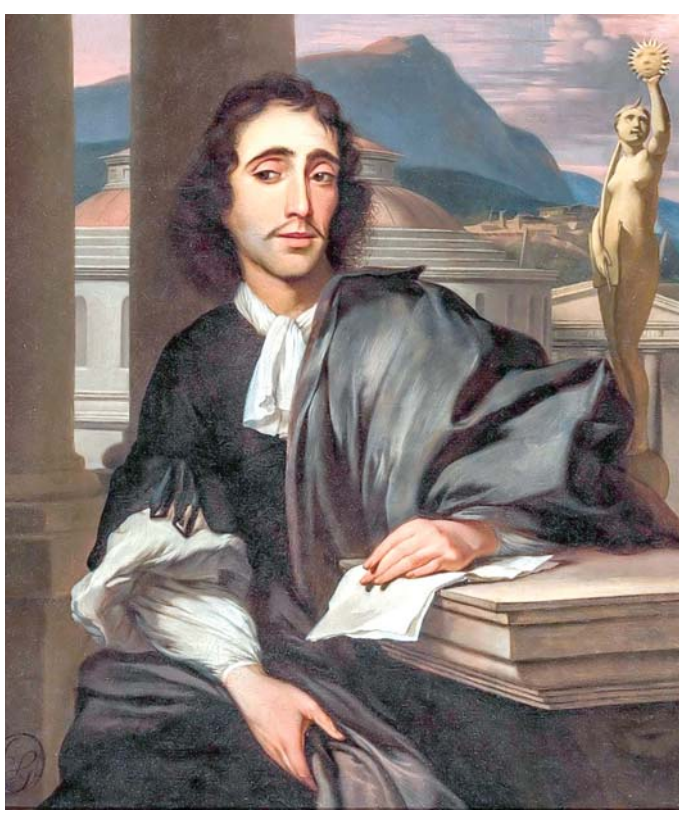

سبينوزا كان يعيش من ريع العقارات

تونس تناقش تحولات الرواية الفلسطينية المعاصرة

تونس - انطلقت مساء الخميس بمدينة الثقافة الشاذلي القليبي بتونس العاصمة تظاهرة "تحولات الرواية الفلسطينية" التي تنتظم ببادرة من "بيت الرواية" من الخامس والعشرين إلى السابع والعشرين من نوفمبر الجاري، بحضور روائيين ونقاد وأكاديميين من فلسطين وتونس، وذلك لتدارس إشكاليات الرواية الفلسطينية والتحولات الحاصلة لها على امتداد العقود الماضية لاسيما وأنها شكلت لدى العديد من الروائيين الفلسطينيين أداة لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي وضمانة للذاكرة والهوية الفلسطينية.

وتأتي هذه التظاهرة تزامنا مع الاحتفال باليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني مثلما تعكس أهمية القضية الفلسطينية في قلوب التونسيين وعمق الروابط التاريخية والحضارية والفكرية التي تربط الشعبين الشقيقين التونسي والفلسطيني، وفق ما أكده سفير فلسطين بتونس هايل الفهوم في افتتاح التظاهرة.

وشدد الفهوم على أن الاهتمام بالرواية الفلسطينية "جزء لا يتجزأ من المقاومة لصد محاولات تزوير الحقائق والمعطيات على أرض الواقع بالأراضي المحتلة التي لا تزال قائمة لتفتيت الشعوب واستعمار العقول وسلب الإرادة لطمس معالم الشخصية والذاكرة الجماعية والهوية الفلسطينية الراسخة منذ عهود".

وقد قدم الأدب الفلسطيني منذ النكبة العشرات من الروايات التوثيقية، لكن الرواية الفلسطينية تجاوزت هموم التوثيق وحفظ الذاكرة، لتصبح أكثر مقاربة لتعقيد الوضع الفلسطيني السياسي والمجتمعي والثقافي، الذي لا يمكن اختصاره بأزمة شتات ونكبة واحتلال فقط بل هو فيه تجليات أكثر تشابكا اليوم وتحتاج إلى مقاربات جديدة وهو ما انخرط فيه الكثير من الروائيين الفلسطينيين وسط جدل كبير خلقته أعمالهم.

وهو ما يمضي فيه مدير "بيت الرواية" لسعد بن حسين الذي أكد أن تنظيم تظاهرة عن الرواية الفلسطينية كان مطمحا تحقق بتضافر العديد من الجهات المتدخلة في تونس والأراضي الفلسطينية، مشيرا إلى أن "الحديث سيكون عن الرواية الفلسطينية التي تحولت من رواية مقاومة إلى هم ذاتي بوجود موجات جديدة لها جعلها تتألق في العديد من المحافل الدولية، حيث تحصلت روايات عدة على جوائز هامة وكانت ضمن القائمات القصيرة للمسابقات الروائية العالمية في العديد من المناسبات بما يعكس عمقها وثراءها وتقيدها بالراهن المعيش".

ومن جانبه أكد الملحق الثقافي لسفارة فلسطين بتونس بسام القواسمة في كلمته أن "الحكومة الفلسطينية أقرت سنة 2021 سنة الرواية الفلسطينية وأعدت خططا وميزانية لتعزيزها عربيا ودوليا لأنها مهددة بالطمس والسرقة والإنكار ولا بد من المحافظة عليها كأداة فضلى لصيانة المكتسبات الثقافية والتاريخية والحضارية لفلسطين مثلما تعد الثقافة في شموليتها أداة مقاومة وتلعب دورا محوريا في مواجهة الاحتلال وخلق جيل على وعي كامل بحقوقه مثلما توصف الرواية بكونها ضامنة للحرية وقادرة على لملمة شتات الإنسان الفلسطيني في رحلة بحثه عن الهوية".

وثمن المدير العام لإدارة الكتاب بوزارة الشؤون الثقافية كمال البشيني من جانبه تنظيم ندوة حول "التحولات في الرواية الفلسطينية" بحضور نخبة من ألمع الروائيين والنقاد الفلسطينيين لتدارس مستويات النص الروائي الفلسطيني وتمثلاته معتبرا أن الرواية الفلسطينية تحيل إلى شخصية المواطن الفلسطيني وقضيته لكونها حمالة لهموم وأفكار وطن يستنهض هممه من مواطنيه في صمودهم أمام جرافات الاحتلال لاقتلاع أشجار الزيتون وهتك الأعراض".

وكان الحفل الافتتاحي لتظاهرة "تحولات الرواية الفلسطينية" مناسبة لتكريم أحد أعلام الرواية الفلسطينية توفيق فياض الذي عاش ويلات السجون الإسرائيلية والتهجير وكانت كتاباته نبراسا للمقاومة الفلسطينية في مواجهة الاحتلال وفسحة أمل للمواطن الفلسطيني في بحثه عن الحرية والانعتاق.

وقدم توفيق فياض بالمناسبة شهادة مؤثرة عن تونس وذكرياته معها وهو الذي قضى بها نحو أربعين عاما حيث يقول "لا أقبل أي تكريم أو جائزة إلا إذا كانت تونسية وحتى إذا لم أكتب رواية واحدة عن تونس فذلك لأنها كانت تشدني دائما لأكتب عن فلسطين".

وتمحورت الجلسة العلمية الأولى لندوة "تحولات الرواية الفلسطينية" حول المدونة الروائية الفلسطينية ومساراتها التاريخية والسياسية والفنية من خلال مداخلات محمد القاضي وأشرف القرقني وعمر حفيظ فضلا عن تقديم شهادات الروائي الفلسطيني ناجي الناجي والروائية نجاة بكري.

> الرواية الفلسطينية تحولت من رواية مقاومة إلى هم ذاتي بوجود موجات جديدة لها ساهمت في تألقها

وتجدر الإشارة إلى أن المشاركين في الندوة سيتطرقون خلال اليومين القادمين إلى الرواية الفلسطينية المقاومة للمحتل الإسرائيلي بإبراز طغيانه وانتهاكاته وتطرفه إلى جانب التطرق للرواية الفلسطينية كناقلة للذات الفلسطينية التي تكابد لتعيش بحرية، كما يقدم الروائيون والنقاد على غرار إيمان زياد وحمد حاجي والبشير الجلجلي وتغريد ناجي وحنان الرحيمي ونبيل قديش وثورة حوامدة وعبدالفتاح دولة ويوسف حطيني وغيرهم العديد من التجارب والشهادات بأسلوب نقدي تارة وفكري أكاديمي تارة أخرى في محاولة لفهم خصوصيات الرواية الفلسطينية والتحولات الحاصلة فيها.

الرواية سردية موازية للذات والهوية